موعظة العصر

أقسم الله في كتابه قَسَمًا عظيمًا لتأكيد خبر مُخِيفٍ، وهو أن جميع الناس خاسرون، وإلى النار صائرون إلا من آمن وعمل صالحًا وتواصى بالحق والصبر، فقال سبحانه:

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَالْعَصْرِ *إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ *إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)]العصر: ١ – ٣.[

قال الشافعي رحمه الله: لَوْ ما تدبَّر الناسُ إلا هذه السورة لكَفَتْهم!

فقد جمعتْ هذه السورة الدِّين كله، فأقسم الله بالعصر، وهو الزمن؛ كما يقال: عَصْرُ الصحابة؛ أي: زمنهم، والعصر القديم، والعصر الحاضر؛ أي: الزمن القديم والحاضر.

أقسم الله بالزمن على أن أكثر الناس في خسارة، أكثر الناس في ضلال، وأكثر الناس إلى جهنم؛ قال الله سبحانه :(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)]يوسف: ١٠٣[، وقال عز وجل :(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)]الأنعام: ١١٦[، وقال سبحانه :(إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ)]ص: ٢٤.[

فالناجون من الخسارة قليل، وهم الذين اتصفوا بأربعِ صفات بَيَّنَها الله في هذه السورة، وهي:

1-الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر خيرِهِ وشرِّهِ.

2-العمل الصالح، وهو الخالي من الرياء، المقيَّدُ بالسُّنَّة، فليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنْ ما وقَر في القلب وصدَّقَه العمل، وأعظم الأعمال بعد الشهادتين: إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، وصوم شهر رمضان، وإيتاء الزكاة على من ملك نِصَاباً، وحَجُّ البيت الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

3-التواصي بالحق؛ فالدين النصيحة، ومن صفات المؤمنين والمؤمنات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ كما قال الله سبحانه :(وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ)]التوبة: ٧١[

4-التواصي بالصبر، والصبر ثلاثة أقسام:

أ- صبر على الطاعات :فالطاعات فيها نوع مشقة، فتحتاج إلى صبر على أدائها؛ كما قال سبحانه :(رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا)]مريم: ٦٥[

ب – صبْرٌ عن المعاصي :فالنفس أمَّارة بالسوء، فعلى المسلم أن ينهى نفسه عن هواها؛ قال سبحانه :(فَأَمَّا مَنْ طَغَى *وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى *وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى *فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)]النازعات: ٣٧ – ٤١.[

ج – صبْرٌ على أقدار الله المؤلمة؛ فالله يبتلي عباده بما يشاء، كما وعدنا بذلك فقال :(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ *الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)]البقرة: ١٥٥، ١٥٦.[

فما أعظمَ هذه السورةَ، وما أكثرَ معانيَها!! وقد كان الصحابة يحرصون على قراءتها وتذكير بعضهم بعضًا بما فيها؛ روى الطبراني في المعجم الأوسط (٥١٢٤) عن أبي مدينة الدارمي رضي الله عنه قال: "كان الرجلانِ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا التقيا لم يفترقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر :(وَالْعَصْرِ *إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)]العصر: ١، ٢]، ثم يُسلِّم أحدهما على الآخر"؛ ذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢٦٤٨)، وقال الألباني مُعلِّقًا عليه:

"في هذا الحديث فائدتانِ مما جرى عليه عمل سلفنا رضي الله عنهم جميعًا:

إحداهما :التسليم عند الافتراق، والأخرى: نستفيدها من التزام الصحابة لها، وهي قراءة سورة) العصر(؛ لأننا نعتقد أنهم أبعد الناس عن أن يُحْدِثوا في الدين عبادةً يتقربون بها إلى الله إلا أن يكون ذلك بتوقيف من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً، ولِمَ لا؟ وقد

أثنى الله تبارك وتعالى عليهم أحسنَ الثناء، فقال :(وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)]التوبة: ١٠٠[، وقال ابن مسعود والحسن البصري: من كان منكم متأسِّيًا، فَلْيتَأَسَّ بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنهم كانوا أبَرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمَقَها علْمًا، وأقلَّها تكلُّفًا، وأقومَها هَدْيًا، وأحسَنَها حالاً، قومًا اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دِينه، فاعرِفوا لهم فضلهم، واتَّبِعُوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم."